الشيخ ندا
أبو أحمد

الحج... وأصناف الناس الأربعة

الشيخ/ندا أبو أحمد

الحج وأصناف الناس الأربعة

تمهيد

إنَّ الحمدَ لله نحمدُه، ونستعينُه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَن يهد اللهُ فلا مضل له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٢)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء:١)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (الأحزاب: ٧٠، ٧١)

أما بعد....

فإن أصدق الحديث كتاب الله -تعالى-، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

اعلموا أيها الأحبة... أن لله مواسم ونفحات يصيب بها من يشاء من عباده، فالسعيد مَن اغتنم هذه الأوقات، وتعرض لنفحات رب الأرض والسماوات، فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات فيسعد بعدها سعادة لا يشقى بعدها أبدًا.

ومن هذه الأيام المباركات العشر من ذي الحجة، وهي أفضل أيام الدنيا، وقد شرع الله فيها حج بيته الحرام.

أيها الأحبة... إنه مما لا شك فيه أن الحج أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، وهو من أفضل الطاعات وأجلّ القربات، التي تُرْضِي رب الأرض والسماوات، وهو عبادة العمر، وختام الأمر، وتمام الإسلام، وكمال الدين.

وقف الناس جميعًا في صعيد واحد وسمعوا قول الحق ﷻ:

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران:٩٧]

وسمعوا قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:١٩٦]

- ***وسمعوا قول النبي ﷺ الثابت في "صحيح البخاري ومسلم":***

" بُنِيَ الإسلام على خمس..... ذكر منهم: وحج البيت من استطاع إليه سبيلًا ".

- ***وسمعوا قول النبي ﷺ الثابت في "صحيح البخاري ومسلم" من حديث أبي هريرة رضي الله عنه:***

" عندما سُئِلَ أيُّ العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور ".

- ***وعند الإمام أحمد من حديث ماعز رضي الله عنه بلفظ:*** **" أن النبي ﷺ سُئِلَ أيُّ الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله وحده، ثم الجهاد، ثم حَجَّة مبرورة تفضل سائر الأعمال كما بين مطلع الشمس إلى مغربها ".**

- ***وعند ابن حبان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال:*** **" أفضل الأعمال عند الله تعالى: إيمان لا شك فيه وغزو لا غلول فيه وحج مبرور ".**

فانقسم الناسُ إلى أصناف أربعة فانتبه لترى من أي صِنف أنت؟!

الصنف الأول: صنف معه مال فتحرَّك فيه الشوق إلى بيت الله الحرام:

فهم الذين عقدوا الإحرام، وقصدوا البيت الحرام، وملئوا الفضاء بالتلبية والتكبير والتهليل والتحميد والإعظام يرددون: "**لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك** [1]، **إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**".

١) فهنيئًا لهذا الصنف: كيف لا؟ وقد جعل اللهُ سعيهم مشكورًا وذنبهم مغفورًا:

فمَن قصد البيت غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه:

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث عمرو بن العاص ﷺ قال: **" لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيتُ النبيَّ ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله ابسط يمينك لأُبايعك فبسط يمينه، قال: فقبضتُ يدي، فقال: مالك يا عمرو؟ قلت: أردت أن أشترط، قال: تشترط ماذا؟ قال: أن يُغفَر لي، قال النبي ﷺ: أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟ ".**

فالله جعل قصد البيت مُكفِّرًا لما سلف من الذنوب، ماحيًا للأوزار والعيوب، حاطًّا للخطايا، يُخْرِج الحاج من ذنوبه كيوم ولدته أُمه.

وأخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

" مَن حجّ لله فلم يرفث [2] ولم يفسق؛ رجع كيوم ولدته أمه ".

قال الحافظ -رحمه الله- في الحديث السابق كما في "فتح الباري" (٣ / ٤٤٧):

ظاهره غفران الصغائر والكبائر والتبعات. اهـ

وهذا الحديث من أقوى الشواهد لحديث العباس بن مرداس ﷺ الذي رواه ابن ماجه.

١- لبيك: إجابة بعد إجابة.

٢- الرفث: الجِماع، ويطلق على التعريض به، وعلى الفُحش في القول.

قال الأزهري: الرفث: اسم جامع لكل ما يريده الرجل من المرأة، وكان ابن عمر - رضي الله عنهما - يخصه بما خوطب به النساء.

قال عياض: عند قوله تعالى: {فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ}: والجمهور على أن المراد به في الآية: الجِماع. اهـ. ذكره الحافظ في "الفتح" وقال: والذي يظهر أن المراد به في الحديث: ما هو أعم من ذلك وإليه نحا القرطبي، وهو المراد بقوله في الصيام: "فإذا كان صوم أحدكم فلا يرفث".

فقد أخرج ابن ماجه والإمام أحمد من حديث العباس بن مرداس ﷺ: **" أن النبي ﷺ دعا لأمته عشية عرفة بالمغفرة، فأجيب: أني قد غفرت لهم ما خلا الظالم فإني آخذ للمظلوم منه، قال: أي رب إن شئت أعطيتَ المظلوم من الجنة وغفرتَ للظالم، فلم يجب عشية، فلما أصبح بالمُزدلفة أعاد الدعاء؛ فأُجيب إلى ما سأل فضحك رسول الله ﷺ (أو قال: تبسم)، فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي إن هذه لساعة ما كنت تضحك فيها، فما الذي أضحكَكَ؟ أضحكَ اللهُ سِنَّك[1]، قال: إن عدو الله إبليس لما علم أن الله قد استجاب دعائي وغفر لأمتي؛ أخذ التراب فجعل يحثوه على رأسه ويدعو بالويل والثبور، فأضحكني ما رأيت من جزعه[2]".**

وهذا الحديث وإن كان قد ضعَّفه الشيخ الألباني –رحمه الله– في "ضعيف سنن ابن ماجه"

إلا أن البيهقي والحافظ ابن حجر قد حسَّنا هذا الحديث بالنظر إلى مجموع الطرق، **أضف إلى هذا أن له شواهد تشهد لمعناه، ومنها: –**

ما رواه ابن المبارك بإسناد جيد عن أنس بن مالك ﷺ قال: **" وقف النبي ﷺ بعرفات وقد كادت الشمس تغرُب، فقال: يا بلال، أنصتْ ليَ الناس، فقام بلال، فقال: أنْصِتوا لرسول الله ﷺ، فنَصَت الناس، فقال: معاشر الناس، أتاني جبريل آنفًا، فأَقْرأني من ربي السلام، وقال: إن الله ﷻ غَفَرَ لأهل عرفات وأهل المشعر الحرام، وضمن عنهم التبعات، فقام عمر بن الخطاب ﷺ، فقال: يا رسول الله هذا لنا خاصة؟ قال: هذا لكم ولِمَن أتى بعدكم إلى يوم القيامة، فقال عمر بن الخطاب ﷺ: كَثُرَ خير الله وطاب ".**

١ـ قال الحافظ في "الفتح" (٤٧/٧): معنى "أضحك الله سِنَّك": لم يُرد به الدعاء بكثرة الضحك، بل لازمه وهو السرور، أو نفى ضد لازمه وهو الحزن.

٢ـ هذا هو حال الشيطان في هذا اليوم، فقد أخرج مالك في "الموطأ" عن طلحة بن عبيد الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:
"ما رؤى الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذلك إلا لما رأى من تنزُّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب ".

وخرَّجه أبو يعلى بإسناده ولفْظه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **" إن الله تَطَوَّل على أهل عرفاتٍ يباهي بهم الملائكة، يقول: يا ملائكتي، انظروا إلى عبادي شُعْثًا غُبْرًا أقبلوا يضربون إلَيَّ من كل فجٍّ عميق، فأُشْهِدُكُم أني قد أجبتُ دُعاءَهُم وشفعتُ رغِيبَهُم ووهبت مُسيئَهُم لمُحْسِنِهِمْ، وأعطيتُ مُحْسِنَهمْ جميع ما سألوني غير التَّبعَاتِ التي بينهُم، فإذا أفاض القومُ إلى جَمْعٍ ووقفوا وعادوا في الرغبة والطلب، [فيقول الله تعالى لملائكته]: يا ملائكتِي، عبادي وقفوا فعادوا في الرغبة والطلب فأُشْهِدُكُم أني قد أجبتُ دُعاءَهُم وشفعتُ رغِيبَهُم ووهبت مُسيئَهُم لمُحْسِنِهِمْ، وأعطيتُ مُحْسِنَهُم جميع ما سألوني وكفلتُ عنهُمُ التَّبعَاتِ التي بينهُم ".**

وبذلك أخذ الجمهور (وهو غفران الذنوب جميعها) واستنبط بعضهم ذلك من مباهاة الملائكة بالحجاج لأن الملائكة مُطهرون مطلقًا ولا يباهي المطهر المطلق إلا بمطهر مطلق.

- **وقال تعالى:** ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء﴾ ظُلْمْ بعضهم بعضًا دون الشرك.

قال المناوي -رحمه الله- كما في "فيض القدير" (٦/ ١١٥):

في قول النبي ﷺ: **" مَن حجَّ لله فلم يرفث ولم يفسق؛ رجع كيوم ولدته أمه "**

أي خلوه من الذنوب وهو يشمل الكبائر والتبعات، وإليه ذهب القرطبي وعياض، ***لكن قال الطبري:***

هو محمول بالنسبة إلى المظالم على مَن تاب وعجز عن وفائها.

قال الترمذي -رحمه الله-:" هو مخصوص بالمعاصي المتعلقة بحق الله لا بحقوق العباد، ولا يسقط الحق نفسه، بل مَن عليه صلاة يسقط عنه إثم تأخيرها لا نفسها ". اهـ

وخلاصة الأمر: وخروجًا من هذا الخلاف بين أهل العلم في كونه يُغفَر له الذنوب والتبعات أم لا؟ فينبغي على مَن أراد الحج قضاء الدين، ورد المظالم، والتوبة والندم قبل التوجه إلي بيت الله الحرام؛ حتى يرجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

٢) فهنيئًا لهذا الصنف، كيف لا؟ وهم الذين نزلوا أضيافًا على الرحمن:

فقد أخرج البيهقي بسند فيه مقال أن النبي ﷺ قال: " الحجّاج والعمّار وفد الله ﷻ، يعطيهم ما سألوا، ويستجيب لهم ما دعوا، ويُخلِف عليهم ما أنفقوا الدرهم ألف ألف ".

(ضعيف الجامع:٢٧٦٦)

وأخرج البزار عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " الحجّاج والعمّار وفد الله ﷻ، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم ". (صحيح الجامع:٣١٧٣)

وأخرج ابن ماجه وابن حبان عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال:

" الغازي في سبيل الله ﷻ والحاج والمُعتمر وفد الله، دعاهم فأجابوه وسألوه فأعطاهم"

(صحيح الجامع: ٤١٧١)

وأخرج الإمام أحمد في "مسنده" بسند فيه مقال، وصححه السيوطي من حديث بريدة أن النبي ﷺ قال: "النفقة في الحج كالنفقة في سبيل الله بسبعمائة ضعف "(ضعيف الجامع:٥٩٩٣)

وأخرج الطبراني بسند فيه مقال عن أبي ذر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: " إن داود النبي - عليه الصلاة والسلام - قال: إلهي ما لِعِبادَكَ عليك إذا ما زاروك في بيتك؟ قال: لكل زائر حق على المزور، حقًّا يا داود لهم عليَ أن أعافيهم في الدنيا، وأغفر لهم إذا لقيتهُم ".

فهنيئًا لأضياف الرحمن، ولذلك يستحب لأهل الموقف الإفطار لأنهم ضيوف الرحمن، والكريم لا يُجَوِّعُ أضيافه.

•وحيث إن الحجاج ضيوف الرحمن؛ لذا فهو يحفظهم ويكلؤهم، فهم في ضمان الله. *فقد أخرج أبو نعيم في "الحلية" من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:*

" ثلاثة في ضمان الله ﷻ: رجلٌ خرج إلي مسجدٍ من مساجد الله ﷻ، ورجلٌ خرج غازيًا في سبيل الله تعالى، ورجلٌ خرج حاجًّا ". (صحيح الجامع:٣٠٥١)

قال المناوي -رحمه الله-: في ضمان الله ﷻ: أي في حفظه وكلاءته ورعايته.

٣) فهنيئًا لهم، كيف لا؟ وهم الذين أهلُّوا بالتكبير والتحميد فبشرهم العزيزُ الحميد بالجنة ودار النعيم والخلود:

- فقد أخرج الطبراني في "الأوسط" وحسنه الألباني من حديث أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " ما أهلّ مُهِلٌّ قط ولا كبر مكبِّر قط إلا بُشِّرَ بالجنة ".

أخرج ابن ماجه والترمذي وابن خزيمة والحاكم عن أبي بكر الصديق ﷺ: " أن رسول الله ﷺ سُئل: أي الأعمال أفضل؟ قال: العجُّ والثجُّ ".

قال وكيع: يعني بالعَجِّ: العجيج بالتلبية، والثجُّ: نحرُ البُدْنِ.

وأخرج الطبراني بسند حسن عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " ما أهل مُهِلٌّ قط إلا بُشِّرَ، قيل: يا رسول الله بالجنة؟ قال: نعم ". (الصحيحة:١٦٢١)

٤) فهنيئًا لهم: كيف لا؟ وهم الذين شربوا من ماءِ زمزم:

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال: " زمزم مباركة، إنها طعام طعم، وشفاء سقم ".

وأخرج ابن حبان بسند صحيح عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال:

قال رسول الله ﷺ: " خيرُ ماءٍ على وجه الأرض ماء زمزم، فيه طعامُ طعم، وشفاء سقم ".

وثبت عن ابن عباس -رضي الله عنهما- كما في "مستدرك الحاكم" أنه كان شرِب من ماء زمزم قال: " اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وشفاء من كل داء ".

أ- وفي "مسند الإمام أحمد وابن ماجه" من حديث جابر ﷺ عن النبي ﷺ قال:

" ماءُ زمزم لما شُرِبَ له ". (صحيح الجامع:٥٥٠٢)

وورد عند الدارقطني والحاكم عن ابن عباس-رضي الله عنهما-قال: " ماء زمزم لما شرب له، إن شربته تستشفي به شفاك الله وإن شربته يشبعك أشبعك الله به، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله، وإن شربته مستعيذًا أعاذك الله، وهي هزمة جبريل وسقيا إسماعيل ".

(ضعيف الجامع:٤٩٧٢) (ورد هذا أيضًا من كلام مجاهد)

٥) فهنيئًا لهذا الصنف، كيف لا؟ وهم الذين تتنزل عليهم الرحمات:

- فقد أخرج الطبراني والحاكم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه ﷺ قال:

" إن الله ﷻ ينزل على أهل المسجد (يعني مسجد مكة) في كل يوم وليلة عشرين ومائة رحمة، ستين للطائفين وأربعين للمصلين وعشرين للناظرين ". (ضعيف الجامع:١٧٦٠)

٦) فهنيئًا لهذا الصنف، كيف لا؟ وهم الذين صلُّوا في مسجد الحبيب ﷺ:

والنبي ﷺ يقول كما في "صحيح مسلم": " صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ".

وأخرج البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: " ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة " فمَن صلَّى في هذا المكان يُرجى له أن يكون من أصحاب الجنة.

وأخرج الإمام أحمد أن النبي ﷺ قال: " مَن صلَّى في مسجدي أربعين صلاة لا تفوته صلاة، كتب له براءة من النار، وبراءة من العذاب، وبراءة من النفاق ".

(قال المنذري: رجاله رجال الصحيح، والراجح ضعفه)

٧) فهنيئًا لهذا الصنف، كيف لا؟ وهم الذين صلُّوا في بيت الله الحرام:

- فقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: " صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف فيما سواه ".

٨) فهنيئًا لهذا الصنف، كيف لا؟ وهم الذين استلموا الركنين (الحجر الأسود – والركن اليماني):

- أخرج الترمذي والنسائي والطبراني من حديث عبيد بن عمير -رحمه الله- قال:

" كان ابن عمر يزاحم على الركنين زحامًا ما رأيتُ أحدًا من أصحاب النبي ﷺ يفعله، فقلت: يا أبا عبد الرحمن، إنك تزاحم على الركنين زحامًا ما رأيتُ أحدًا من أصحاب النبي ﷺ يزاحم عليه، فقال: نعم. أنا أفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن مسحهما كفارة للخطايا، وسمعته يقول: مَن طاف بهذا البيت أسبوعًا فأحصاه كان كعتق رقبة، وسمعته يقول: لا يضع قدمًا ولا يرفع أخرى إلا حطَّ الله عنه خطيئتة وكتب له بها حسنة ".

(صحيح الجامع: ٦٣٨٠)

وفي رواية أخرى عند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن عبيد بن عمير: " أنه سمع أباه يقول لابن عمر -رضي الله عنهما-: ما لي لا أراك تستلم إلا هذين الركنين الحجر الأسود والركن اليماني؟ فقال ابن عمر: إن أفعل، فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن استلامهما يحط الخطايا، قال: وسمعته يقول: مَن طاف أسبوعًا يحصيه وصلَّى ركعتين كان كعدل رقبة، قال: وسمعته يقول: ما رفع رجلٌ قدمًا ولا وضعها إلا كُتب له عشر حسنات وحُطَّ عنه عشر سيئات ورُفع له عشر درجات ". (صحيح الترغيب والترهيب: ١١٩٣)

ورواه ابن خزيمة إلا أنه قال: " إن أفعل، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: مسحهما يحط الخطايا، وسمعته يقول: مَن طاف بالبيت لم يرفع قدمًا ولم يضع قدمًا إلا كَتَبَ الله له حسنة، ويحط [عنه] خطيئة، وكتب له درجة، وسمعته يقول: مَن أحصى أسبوعًا كان كعتق رقبة ".

وفي رواية أخرى عند الإمام أحمد والترمذي عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: " إن مسح الحجر الأسود والركن اليماني يحطان الخطايا حطًّا ". (صحيح الجامع: ٢١٩٤)

وأخرج البيهقي في "شعب الإيمان" عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال:

" ليأتين هذا الحجرُ يوم القيامة له عينان يُبصِر بهما، ولسانٌ ينطِقُ به، يشهدُ على مَن استلمهُ بحق ". (صحيح الجامع: ٥٣٤٦)

٩) هنيئًا لهذا الصنف، كيف لا؟ وهم الذين وقفوا بعرفة فباهى الله بهم الملائكة:

فقد أخرج الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال في حديث: "... إن الله ﷻ يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة، فيقول: انظروا إلى عبادي شُعْثًا غُبْرًا ".

وفي "صحيح مسلم" عن عائشة -رضي الله عنها- عن النبي ﷺ قال: " ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبيدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو يتجلى، ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟".

وأخرج أبو يعلى بسنده أن النبي ﷺ قال: " إن الله تَطَوَّل على أهل عرفاتٍ يباهي بهم الملائكة، يقول: يا ملائكتي، انظروا إلى عبادي شُعْثًا غُبْرًا أقبلوا يضربون إلَيَّ من كل فجٍ عميق، فأُشْهِدُكُم أني قد أجبتُ دُعاءَهُم وشفعتُ رغِيبَهُم ووهبت مُسيئَهُم لمُحْسِنِهِمْ، وأعطيتُ مُحْسِنَهمْ جميع ما سألوني غير التَّبعَاتِ التي بينهُم، فإذا أفاض القومُ إلى جَمْعٍ ووقفوا وعادوا في الرغبة والطلب، **[فيقول الله تعالى لملائكته]**: يا ملائكتِي، عبادي وقفوا فعادوا في الرغبة والطلب فأُشْهِدُكُم أني قد أجبتُ دُعاءَهُم وشفعتُ رغِيبَهُم ووهبت مُسيئَهُم لمُحْسِنِهِمْ، وأعطيتُ مُحْسِنَهُم جميع ما سألوني وكفلتُ عنهُمُ التَّبعَاتِ التي بينهُم ".

فمَن مثلك أيها الحاج؟! فإن الملك ﷻ يعطيك من الفضل والأجر الكبير، والذي بيَّنه النبي ﷺ *في الحديث الذي أخرجه الطبراني والبزار واللفظ له من حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- قال:* "كنت جالسًا مع النبي ﷺ في مسجد منىً، فأتاه رجلٌ من الأنصار، ورجلٌ من ثقيف، فسلَّما ثم قالا: يا رسول الله جئنا نسألك، فقال: إن شئتما أخبرتكما بما جئتما تسألان عنه فَعَلْتُ، وإن شئتما أُمْسِك وتسْألاني فَعَلْتُ، فقالا: أخبرنا يا رسول الله، فقال الثقفي للأنصاري: سَل، فقال: أخبِرني يا رسول الله، فقال: جِئتَ تسألني عن مخرجك من بيتك تَؤُمُّ البيتَ الحرام وما لك فيه؟ وعن ركعتيك بعد الطواف وما لك فيهما؟ وعن طوافك بين الصفا والمروة وما لك فيه؟ وعن وقوفك عشية عرفة وما لك فيه، وعن رميك الجِمار وما لك فيه؟ [وعن حلقك رأسك وما لك فيه؟] وعن نحرك [وما] ما لك فيه مع الإفاضة؟ فقال: والذي بعثك بالحق لَعَنْ هذا جئتُ أسألك، قال: فإنك إذا خرجت من بيتك تَؤُمُّ البيتَ الحرام لا تضعُ ناقتُك خُفًا ولا ترفعُه إلا كتب الله لك به حسنة ومحا عنك خطيئة، وأما ركعتاك بعد الطواف كعتق رقبة من بني إسماعيل عليه السلام، وأما طوافك بالصفا والمروة كعتق سبعين رقبةً، وأما وقوفك عشية عرفة فإن الله تبارك وتعالى يهبط إلي سماء الدنيا فيباهي بكُم الملائكةَ، يقول: عبادي جاءوني شُعْثًا من كل فجٍّ عميقٍ يرجون جنتي فلو كانت ذنوبُكم كعدد الرمل، أو كقطر المطر، أو كزبد البحر لغفرتها، أفيضوا عبادي مغفورًا لكم ولمَن شفعتم له، وأما رميُكَ الجمَار فلك بكل حصاةٍ رميتَها تكفيرةُ كبيرةٍ من الموبقات، وأما نحرُك فمدخورٌ لك عند ربك، وأما حلاقُكَ رأسَكَ فلك بكلِّ شعرةٍ حلقتَهَا حسنةٌ، وتُمْحَى عنك بها خطيئةٌ، وأما طوافُكَ بالبيت بعد ذلك فإنك تطوفُ ولا ذنب لك، يأتي ملكٌ حتى يضعَ يدَه بين كتفيك، فيقول: اعمل فيما يُسْتَقْبَلُ، فقد غُفِرَ لك ما مَضَى ".

وأخرج ابن حبان في صحيحه عن ابن عمر -رضي الله عنهما- بسند صحيح صححه الألباني أن النبي ﷺ قال: " ما ترفع إبل الحاج رجلًا ولا تضع يدًا، إلا كتب الله له بها حسنة، أو محا عنه سيئة، أو رفعه بها درجة ".

فأي كرامة بعد هذه الكرامة التي أعدها الله لزوار بيته، وحجاج حرمه ووفده، يغسل ذنوبهم، ويطهر نفوسهم، ويبارك لهم في أعمالهم، ويخلف عليهم ما أنفقوا، ويستجيب دعاءهم، وينظر إليهم ويباهي بهم الملائكة، ويجزيهم بما عملوا جنات تجري من تحتها الأنهار ويكفهم شر النيران.

فالحج ثوابه العتق من النار.

فقد أخرج الإمام مسلم من حديث عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال:

" ما من يومٍ أكثر من أن يعتق اللهُ فيه عبيدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة ".

وثمرة الحج دخول جنة الرحمن.

فقد أخرج الطبراني بإسناد جيد عن أبي الدرداء ﷺ عن النبي ﷺ قال:

" خمسٌ مَن جاء بهن مع إيمان دخل الجنة، مَن حافظ على الصلوات الخمس على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلًا، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه ".

وعند أحمد والترمذي من حديث معاذ بن جبل ﷺ قال: **" قلت يا رسول الله أخبرني بعملٍ يُدخلني الجنة ويباعدني من النار؟ قال: لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على مَن يسَّره الله تعالى عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت ".**

فالله ﷻ لم يرضَ لقاصد بيته ثواباً دون الجنة.

فقد أخرج البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" العمرة إلى العمرة كفارةٌ لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة ".**

وعند الإمام أحمد والترمذي بسندٍ صحيح من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **" تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة "[1].**

قال المناوي -رحمه الله- في "فتح القدير":

لا يقتصر الحج لصاحبه من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه فقط بل لابد أن يدخله مع السابقين أو يدخله الجنة بغير حساب وإلا فكل مؤمن يدخلها وإن لم يحج.

الصنف الثاني: صنف معه مال ولم يذهب لزيارة بيت الله الحرام:

فهذا على خطر عظيم وجرم كبير، وقبل الكلام على هذا الصنف هناك سؤال يَطرحُ نفسه...

هل الحج على الفور أم على التراخي؟

اختلف العلماء في هذه المسألة:

فذهب جمهور العلماء: أبو حنيفة (في أصح الروايتين)، وأبو يوسف، ومالك، وأحمد أنه يجب على الفور وأنه يأثم بتأخيره.

بينما ذهب الشافعي: إلى أنه على التراخي.

والراجح من حيث الدليل: أنه على الفور.

أي أن العبد إذا ملك حد الاستطاعة، أي يملك المسلم ما يوصله إلى بيت الله الحرام، مع نفقته ونفقة أهله حتى يرجع، فينبغي عليه أن يحج بيت الله الحرام.

ويدل على ذلك القرآن، والسنة، وأقوال سلف الأمة، ويدل على ذلك أيضًا الأدلة اللغوية، والأدلة العقلية.

أولًا: الأدلة من القرآن:

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]

وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:١]، **وقوله ﷻ:** ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة:١٤٨]

كذلك حذرنا الله ﷻ من اقتراب الأجل ونحن لا نشعر

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٥]

ففي هذه الآية يتضح لنا أنه يجب على الإنسان أن يبادر إلى امتثال الأمر خشية أن يعاجل العبد الموت وهو غير مستعد له.

ثانياً: الأدلة من السنة:

١) ***ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ﷺ قال:*** **" خطبنا رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا ".**

والأصل في الأمر أن يكون على الفور ما لم يصرفه صارف وعلى هذا فينبغي المبادرة.

٢) ***وأخرج الحاكم في "المستدرك بسند حسن عن ابن عباس -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال:*** **" لا صرورة في الإسلام ".**

. الصرورة: ترك الحج، وهي من الصرّ، وهو المنع والحبس.

وأخرج أبو داود أن النبي ﷺ قال: **" التؤدة في كل شيء، إلا في عمل الآخرة ".**

- وفي رواية: -: **" التؤدة في كل شيء خير، إلا في عمل الآخرة ".**

وهناك جملة من الأحاديث تصل بمجموعها إلى درجة الاحتجاج تدل على الفورية منها: -

٣) ***ما أخرجه الإمام أحمد وغيره من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- عن الفضل أو أحدهما عن الآخر قال: قال رسول الله ﷺ:*** **" مَن أراد الحج فليتعجل فإنه قد يمرض المريض[١]، وتضل الضالة، وتعرض الحاجة ".** (صحيح أبو داود:١٥٢٢)

- وفي "مسند الإمام أحمد" عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال:

" تعجَّلوا إلي الحج، فإن أحدكم لا يدري ما يَعرضُ له ". (صحيح الجامع:٢٩٥٧)

٤) ***وأخرج الإمام أحمد وغيره عن عبد الرحمن بن سابط ﷺ عن النبي ﷺ قال:***

"مَن لم تحبسه حاجة ظاهرة أو مرض حابس أو مُنِع من سلطان جائر ولم يحج، فليمت إن شاء يهوديًا وإن شاء نصرانيًا "[٢]

- وهو عند سعيد بن منصور في "سننه" بلفظ: **" مَن مات ولم يحج حجة الإسلام، لم يمنعه مرض حابس، أو سلطان جائر، أو حاجة ظاهرة، فليمت على أي حال شاء يهوديًا أو نصرانيًا ".**

١- قال المناوي -رحمه الله- كما في "فتح القدير" (٤٦/٦): يمرض المريض: المريض لا يمرض بل الصحيح، فسمى المُشارف للمرض مريضاً، كما سمى المُشارف للموت ميتاً، ومنه قوله تعالى: {وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} أي صائر إلى الفجور والكفر. (ذكره الزمخشري).

٢- ولهذا الحديث طرق متعددة يقوي بعضها بعضاً، ومجموع تلك الطرق لا يقصر عن كون الحديث حسن لغيره وهو محتج به عند الجمهور. لكن الشيخ الألباني- رحمه الله- ضعف هذا الحديث في (ضعيف الترغيب والترهيب:٧٥٤)

٥) ***وأخرج ابن حبان وأبو يعلى والبيهقي من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى:*** **" إن عبدًا صححت له جسمه، ووسعت عليه في المعيشة، تمضي عليه خمسة أعوام لا يفد إليَّ لمحروم ".**

وانظر إلى قوله: **" لا يفد إليَّ"، *ولم يقل:*** "إلى بيتي"؛ لأن الحج هو الرحلة إلى الله، والحُجَّاج والعُمَّار وفد الله، فكيف لا يكون محرومًا مَن لا يفد ولا يرحل إليه، وكيف لا يكون محرومًا مَن لا يكون من قوم يباهي الله بهم الملائكة.

– وهذا الحديث يدل على استحبابه كل خمسة أعوام، وأما حج الفريضة فهو مرة في العمر.

ثالثًا: الآثـــار:

١) ***خرج البيهقي بسندٍ فيه مقال عن عمر بن الخطاب ﷺ قال:*** **" لقد هممتُ أن أبعث رجالًا إلى هذه الأمصار، فينظروا كل مَن كانت له جِدّة ولم يحج، فيضربوا عليهم الجزية، ما هم بمسلمين... ما هم بمسلمين ".**

وأخرجه كذلك سعيد بن منصور، وصححه ابن حجر موقوفًا على عمر ﷺ .

٢) ***وأخرج الترمذي عن النبي ﷺ والصحيح أنه موقوف على عليّ بن أبى طالب ﷺ أنه قال:*** **" مَن ملك زادًا أو راحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج فلا عليه أن يموت يهوديًا أو نصرانيًا وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] ".**

٣) ***وأخرج الترمذي أيضًا عن ابن عباس –رضي الله عنهما– عن النبي ﷺ قال:***

" مَن كان له مال يبلغه حج بيت الله الحرام ولم يحج، أو تجب فيه زكاة ولم يُزكِّ، سأل الله الرجعة عند الموت، فقال له رجل: اتقِ الله يا ابن عباس فإنما يسأل الرجعة الكفار، فقال ابن عباس –رضي الله عنهما–: سأتلو عليك قرآنًا: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون: ١٠]

– **أَصَّدَّقَ**: أي أؤدي الزكاة – **وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ**: أي أحج

٤) ***وقال سعيد بن جبير:*** **"مات لي جارٌ موسر ولم يحج، فلم أُصلِّ عليه ".**

تنبيه: وهذا كله من باب التقريع وليس من باب تكفير مَن ترك هذه الفريضة مع القدرة عليها.

رابعاً: الأدلة من اللغة:

فإن أهل اللغة وأهل لسان العرب مطبقون على أن السيد لو قال لعبده اسقني ماءً فلم يفعل فأدَّبه، ليس للعبد أن يقول هذا الأمر على التراخي.

خامساً: الأدلة العقلية:

فلو قلنا: إن وجوب الحج على التراخي فلا يخلو من أحد أمرين:

- إما أن يكون ذلك التراخي له غاية معينة ينتهي إليها.... وإما لا.

والقول بأن له غاية ينتهي إليها، ليس عليه دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع.

- ***وإن قلنا:*** أن تراخيه إلى غير غاية، فما جاز تركه إلى غير غاية دلَّ على عدم وجوبه، والمفروض وجوبه.

فإن قيل: غايته الوقت الذي يغلب على الظن بقاؤه إليه، فالجواب: أن البقاء إلى زمن متأخر ليس لأحد أن يظنه؛ لأن الموت يأتي بغتة

فكم من إنسان يظن أنه يبقى سنين طويلة ويخترمه الموت فجأة.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف:١٨٥]

فيا لها من عبادة يُعدم بفقدها الكمال، ويساوي تاركها اليهود والنصارى في الضلال.

فكيف تطيب نفس المؤمن أن يترك الحج مع قدرته عليه بماله وبدنه، وهو يعلم أنه من فرائض الإسلام وأركانه؟

وكيف يبخل بالمال في أداء هذه الفريضة، وهو ينفق الكثير من ماله فيما تهواه نفسه؟

وكيف لا يريد أن يتعب نفسه في الحج، وهو يُتعب ويرهق نفسه في أمور الدنيا؟

وكيف يتثاقل عن هذه الفريضة، وهي لا تجب في العمر إلا مرة واحدة؟

وكيف يؤخر أداء الحج، وهو لا يدري لعله لا يستطيع الوصول إليه بعد عامه؟

فإياك... إياك أخي الحبيب وطول الأمل.

فيا مَن أعطاه الله المال ولم يحج... اعلم أن العمر قصير، والباقي منه هو اليسير، والأجل محدود غير معلوم، والغنى غير ميسور، والصحة غير مأمونة.

فيا أيها الحبيب...

١) أما سمعت الله تعالى يقول لنبيه: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر:٣]

أي دعهم يعيشوا كالأنعام، ولا يهتمون بغير الطعام والشهوات، وتشغلهم الدُنيا وطول الأمل عن طاعة رب العالمين.

- أما سمعت قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٥]

أيها الحبيب...

أما سمعت أنس بن مالك ﷺ وهو يحدثك عن رسول الله ﷺ والحديث عند البخاري:

"خطَّ رسول الله ﷺ خطًا وقال هذا الإنسان، وخطَّ إلى جنبه خطًا وقال هذا أجله، وخط خطًا آخر بعيد منه فقال: وهذا الأمل فبينما هو كذلك إذا جاءه الأقرب ".

فكم من مستقبل يومًا لا يستكمله وكم من مؤمل لغد لا يدركه

فيا أيها الغافل...

يا مَن بدنياه اشتغل وغـرَّه طـول الأمـل
وقد مضى في غفلةٍ حتى دنا منـه الأجل
الموت يأتي بغتـة والقبر صندوق العمل

فالنبي ﷺ كان يخاف علينا من طول الأمل، فقد أخرج الحاكم بسند فيه مقال عن جابر ﷺعن النبي ﷺ قال:" إن أخوف ما أخاف على أمتي الهوى وطول الأمل، فأما الهوى فيضل عن الحق، وأما طول الأمل فيُنسِي الآخرة ".

(والصحيح أنه موقوف على عليٍّ بن أبي طالب، وهو عند البخاري مُعلَّقًا)

فحدث نفسك أيها الغافل وقل لها:

يا نفس قد أزف الرحيل وأظلك الخطب الجليل
فتأهبي يا نفس لا يلعب بـك الأمـل الطويـل
فـلتتزلـن بـمنزلٍ ينسى الخليلُ بـــه الخليـــل
وليركـبن عـليك فيـــه مـن الثرى ثقلٌ ثقيل

فالمبادرة..... المبادرة

يقول الحسن البصري -رحمه الله-:

"المبادرة... المبادرة فإنما هي الأنفاس، لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله ﷻ، رحم الله امرًا نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه، **ثم قرأ هذه الآية:** ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ فآخر العدد خروج نفسك، وآخر العدد فراق أهلك، وآخر العدد دخولك في قبرك. اهـ

فلك أيها الإنسان خطوات لا تتخطاها ولك أنفاس لا تتعداها.

ولذلك فالنبي ﷺ يحثنا على المبادرة واغتنام العمر والأوقات

١) ***فقد أخرج الترمذي من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:*** **" بادروا بالأعمال سبعًا هل تنظرون إلا فقرًا منسيًا، وغنى مطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفندًا، أو موتًا مجهزًا، أو الدجال فشر غائب ينتظر، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر".** (ضعيف)

٢) ***وعند ابن ماجه والبيهقي من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال:***

" خطبنا رسول الله ﷺ فقال: يأيها الناس توبوا إلى الله قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تشغلوا، وصِلُوا الذي بينكم وبين ربكم بكثرة ذكركم له، وكثرة الصدقة في السر والعلانية، ترزقوا وتنصروا وتجبروا ". (ضعيف الجامع:٦٣٨٦)

٣) ***وأخرج الحاكم من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ لرجل وهو يعظه:*** **"اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك ".** (صحيح الجامع:١٠٧٧)

فعليك بالندم اليوم والتوبة قبل أن تندم في يوم لا ينفع فيه ندم، **ساعتها يقول الإنسان:**

﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩]

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر:٥٨]

وليتمثل قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:١٠- ١١]

فساعة يأتيك الموتُ فلا أنت إلى دنياك عائد، ولا في حسناتك زائد، فعليك أن تعمل ليوم القيامة يوم الحسرة والندامة.

فلا ترج فعل الخير إلى غدٍ فلعل غدا يأتي وأنت فقيد

وهيا أعلنها مدوية تملأ الآفاق: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه:٨٤]

فالغنيمة... الغنيمة بانتهاز هذه المواسم الفاضلة فما منها عوض

والمبادرة... المبادرة بالعمل، والعَجل العَجل قبل هجوم الأجل، قبل أن يندم المُفرط على ما فعل، قبل أن يسأل الرجعة ليعمل صالحًا فلا يجاب إلى ما سأل، قبل أن يحول الموت بين المؤمل وبلوغ الأمل، قبل أن يصير المرء مرتهنًا في حفرته بما قدم من عمل

وصدق القائل:

ليس في كل ساعةٍ وأوان تتهيأ صنائع الإحسان

فـإذا أمكنت فبادر إليهـا حذرًا من تعذر الإمكان

واعلم أيها المشتاق...

أن الفرصة إذا لم يغتنمها صاحبها انقلبت إلى حسرة، وقد تتهيأ لك الأسباب اليوم ولا تتهيأ غدًا فازرع اليوم لتحصد في الغد، وإن الغد لقريب.

واعلم أن الله تعالى إذا أراد بعبد خيرًا؛ شرح صدره لما فيه فلاحه ونجاته، واستعمل جوارحه في مرضاته والسعيد الموفق إذا جاءته الموعظة، انفتح لها قلبه، ونشطت للعمل عليها جوارحه، أولئك لهم البشرى **كما قال المولى سبحانه:** ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٨]

الصنف الثالث: صنف ليس معه مال، ولا يتمنّى الحج، ولم يحدث نفسه به، ولا يشتاق إليه:

هذا الصنف على خطر كذلك، ونحن لا نريد منه إلا أن يُحسن نيته، وأن تهفو نفسه دائمًا ويشتاق لرؤية بيت الله الحرام، فإذا علم اللهُ حسن نيته وإرادته الحج، فإنه قد يعطيه ما يبلغه لزيارة بيته لصدق نيته.

١) ***وانظر إلى قول النبي ﷺ والذي أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه:*** **" ثلاثٌ حق على الله أن يعينهم: الناكحُ يُريدُ العفاف، والمجاهد في سبيل الله، والمُكاتب الذي يريد الأداء ".**

فلما علم الله صدق نيتهم أعانهم فيما طلبوا وأرادوا.

ويكفيك أيها الصنف أن تحسن النية حتى تؤجر على العمل وإن لم تستطع عمله، ولكن حسبك أن يرى الله منك صدق الإقبال على العمل مع العجز عنه، واعلم أنه ربما يُكْتَب لك أجر الحج دون أن تذهب.

٢) ***وانظر إلى قول النبي ﷺ الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه قال:***

" لما خرج رسولُ الله ﷺ في غزوة تبوك، قال: إن بالمدينة أقوامًا ما قطعنا واديًا ولا وطئنا موطئًا يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا مخمصة؛ إلا شاركونا في ذلك وهم بالمدينة، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟، قال: حبسهم العذر ".

فشاركوا في الأجر بصدق نيتهم؛ وذلك لأنهم أرادوا أن يجاهدوا مع النبي ﷺ، ولكنه ردَّهم لعدم وجود ما يحملهم عليه؛ فرجعوا وهم يبكون، **فنزل فيهم قوله تعالى:** ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة:٩٢]

٣) ***وأخرج النسائي من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:*** **" مَن أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل، فغلبته عينه حتى يصبح؛ كُتِبَ له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من ربه ".**

٤) ***وأخرج الإمام مسلم أن النبي ﷺ قال:*** **" مَن سأل الله الشهادة بصدق بلغَه الله منازل الشهداء وإن مات على فِراشه ".**

ولله در القائل:

يا سائرين إلى البيت العتيق لقد ... سرتم جُسومًا وسرنا نحنُ أرواحًا

إنّا أقمنا على عـذرٍ وقد رحلـوا ... ومَـن أقـام على عـذرٍ كمن رَاحَا

الصنف الرابع: صنف ليس معه مال، لكن تشتاق نفسه وتهفو روحه إلى بيت الله الحرام:

وهذا الصنف هو الذي يحترق قلبه شوقًا إلى بيت الله الحرام، تذرف دموعه كلما جاء موعد الحج، فلا يهنأ بطعام، ولا يغمض بمنام.

فهم الذين تعلقت قلوبهم ببيت محبُوبِهم، فكلما ذكر لهم ذلك البيت حَنّوا، وكلما تذكروا بعدَهم عنه أنُّوا، علم الله هذا من حالهم فمنَّ عليهم بأعمال تثلج صدورهم، وتطفئ نار الشوق والحنين إلى بيت رب العالمين، فشرع لهم من الأعمال ما يعطيهم به أجر الحُجَّاج والعُمَّار، وهذه الأعمال كالماء البارد على الظمأ، وهي البلسم الشافي والدواء الكافي، التي تروي غليل القلوب المشتعلة؛ شوقًا لرؤية البيت العتيق ومسجد الحبيب ﷺ، **وإليك طرفًا من هذه الأعمال: -**

١) الجلوس بعد الفجر في المُصلَّى، وذكر الله تعالى حتى طلوع الشمس ثم تصلي ركعتين:

- فقد أخرج الترمذي من حديث أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **" مَن صلى الصبح في جماعة، ثم قعد يذكُرُ اللهَ حتى تطلع الشمسُ، ثم صلى ركعتين؛ كانت له كأجر حجةٍ وعمرةٍ تامة تامة تامة ".**

- وأخرج الطبراني في "الأوسط" بسند حسن حسنه الألباني عن ابن عمر-رضي الله عنهما- قال: **" كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى الفجر لم يقم من مجلسه حتى تمكنه الصلاة، وقال: مَن صلَّى الصبح ثم جلس في مجلسه حتى تمكنه الصلاة كان بمنزلة عمرة وحجة متقبلتين ".**

فإذا جلست عن هذا العمل الجليل وهو الحج وذلك لعذر فهاك الأجر، فلا يفتك الأجر إذا كنت صادق النية.

٢) حضور مجالس العلم في المسجد:

فقد أخرج الطبراني والحاكم عن أبي أمامة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **" مَن غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلَّم خيرًا أو يعلمه، كان كأجر حاج تامًا حجته "**

٣) أداء الصلاة المكتوبة في المسجد:

فقد أخرج الإمام أحمد بسند حسن عن أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" مَن مشى إلى صلاة مكتوبة في الجماعة فهي كحجة، ومَن مشى إلى صلاة تطوع فهي كعمرة نافلة ".**

والمقصود بصلاة التطوع في الحديث: هي صلاة الضحى، كما بيَّنت ذلك بعض الأحاديث

فقد أخرج أبو داود من حديث أبي أمامة أيضًا ﷺ أن النبي ﷺ قال: **" مَن خرج من بيته متطهرًا إلى صلاة مكتوبة؛ فأجره كأجر الحاج المحرم، ومَن خرج إلى تسبيح الضحى [١] لا ينصبه [٢] إلا إياه؛ فأجره كأجر المعتمر، وصلاة على أثر صلاة لا لغو بينهما كتاب في عليين ".** **(صحيح الجامع:٦٢٠٠)**

فلا تتعجب من هذا الأجر، ولكن العجب كل العجب على مَن يتوانى ويتكاسل عن هذا الأمر، وانظر عندما يخرج المسلمون من بيوتهم متطهرين لأداء الصلاة المكتوبة في جماعة في المسجد وفي وقت واحد، وهذا يشبه خروج الحجيج من بيوتهم متوجهين بقلوبهم وأبدانهم إلى البيت المعظم لأداء مناسك الحج.

فكما يجتمع الحجاج صغيرهم وكبيرهم لا فرق بين هؤلاء وهؤلاء، كذلك في صلاة الجماعة يجتمع أغنى الناس إلى جنب أفقر الناس، والأمير إلى جنب المأمور، والحاكم إلى جنب المحكوم، والصغير إلى جنب الكبير... وهكذا؛ فيشعر الناس بأنهم سواء.

فكل مَن يحافظ على الصلوات يكون شريكًا للحاج يوم حجه، فأجره كأجر الحاج المُحرم كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

فما أعظم أن يُكتَب لك هذا الأجر بجانب شهادة الله لك بالإيمان، وكفى بشهادة الله شهادة، إذ شهد لمَن عمر المساجد بالإيمان، **فقال عزَّ شأنه:** ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ **[التوبة:١٨]**

١- تسبيح الضحى: يريد صلاة الضحى، وكل صلاة يتطوع بها فهي تسبيح وسُبحة.
٢- لا ينصبه: لا يتعبه ولا يزعجه إلا ذلك.

٤) صلاة العشاء في جماعة:

- ***أخرج الإمام مسلم من حديث أبي ذر*** ﷺ:" أن أناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يُصلُّون كما نُصلِّي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، فقال النبي ﷺ: أوليس قد جعل الله لكم صلاة العشاء في جماعة تعدل حجة، وصلاة الغداة في جماعة تعدل عمرة ".

٥) الأذكار بعد الصلاة:

فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ:" أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المُقيم، يُصلُّون كما نُصلِّي، ويصومون كما نصوم، ولهم فضل من أموال: يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون، فقال ﷺ: ألا أُعلِّمكُم شيئًا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحدٌ أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين ".

- ***قال أبو صالح الراوي عن أبي هريرة*** ﷺ:" لما سُئِل عن كيفية ذكرهن، قال: يقول: سبحان الله، والحمد لله، والله أكبر، حتى يكون منهن كلهن ثلاثًا وثلاثين ".

٦) عمرة في رمضان:

فإن عجزت عن الذهاب إلى الحج لقلة النفقة فاجتهد أن تعتمر في رمضان فإن هذا فيه ما فيه من الأجر فهو يعدل كحجة مع النبي ﷺ.

فقد أخرج البخاري ومسلم واللفظ لمسلم عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال لامرأة من الأنصار يُقال لها أم سنان: " ما منعك أن تكوني حججت معنا؟ قالت: ناضحان كانا لأبي فلان- زوجها- حج هو وابنه على أحدهما، وكان الآخر يسقي عليه غلامنا، قال: فعمرة في رمضان تقضي حجَّة - أو حجَّة معي -".

٦) بر الوالدين:

أخرج أبو يعلى بسند جيد أن رجلًا جاء إلى رسول الله ﷺ وقال: **" إني اشتهي الجهاد ولا أقدر عليه، قال: هل بقي من والديك أحد؟ قال: أمي، قال: قابل الله في برِّها، فإذا فعلت فأنت حاج ومعتمر ومجاهد ".**

وعند الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث أنس ﷺ بلفظٍ آخر:

" أنه أتى رجلٌ إلى رسول الله ﷺ، فقال: إني أشتهي الجهاد وإني لا أقدر عليه، فقال له الرسول ﷺ: هل بقي أحد من والديك؟ قال: أمي، فقال له رسول الله ﷺ: اتقِ الله فيها فإن فعلت فأنت حاج ومعتمر ومجاهد ".

فلا عجب ولا غرو في ذلك، فأمتنا أمة مرحومة كتب الله عليها أعمال هي صغيرة في العمل، ولكنها كبيرة في الأجر، ككلمة "**آمين**" خلف الإمام، وكليلة القدر، وكصيام يوم عرفة، وكصيام يوم عاشوراء، وكالذكر الذي هو غراس الجنة، وكالدعاء عند الانتهاء من الطعام، وكالسعي للجمعة ... وغير ذلك.

١- فإن عجزت أن تكون من وفد الرحمن في هذا العام فلا تعجز أن تتشبه بهم:

وانظر إلى قول النبي ﷺ الثابت في "صحيح مسلم" من حديث سعيد بن المسيب يقول سمعت أم سلمة زوج النبي ﷺ تقول: قال رسول الله ﷺ: **" مَن كان له ذبح يذبحه، فإذا أهلَّ هلال ذي الحجة، فلا يأخذن من شعره ولا من أظفاره شيئًا حتى يضحي ".**

وهذا فيه ما فيه من التشبه بالحاج؛ لتعيش ما يعيشه الحاج من روحانيات جميلة.

٢- وإن عجزت أن تقدم الهدى في بيت الله الحرام فلا تعجز أن تقدمه كل جمعة.

- فقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **" مَن اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومَن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومَن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبش أقرن، ومَن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومَن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر ".**

٣- وإن عجزت أن تكون فيمن يباهي اللهُ بهم الملائكة هناك - أي في عرفة- فلا تعجز أن تكون ممن يباهي الله بهم الملائكة هنا في مجالس الذكر...

- فقد أخرج الإمام مسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قال: **" خرج معاوية على حلقة في مسجد، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟، قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثًا مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه، فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنَّ به علينا، قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة ".**

فكفى بالذكر شرفًا أن الله ﷻ يباهي ملائكته بأهله كما يباهي الملائكة بالحجاج.

- فقد أخرج الإمام أحمد من حديث جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال: **" إن الله ﷻ يباهي بالحجاج الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثًا غبرًا من كل فجٍّ عميق، أشهدكم أني قد غفرتُ لهم ".**

٤- فإن عجزت أن تكون فيهم -أي في الحُجَّاج- فلا تعجز في أن تجتهد في الأيام العشر الأُوَّل من ذي الحجة

فإن هذه الأيام المباركات أفضل أيام الدنيا، وهي من النفحات الربانية على الأمة المحمدية، وهي من مواسم الخيرات التي تتفاضل فيه الأعمال وتزداد، وهي أيام يشترك فيها القاعدين والسائرين إلى البيت العتيق، فمَن عجز عن الحج فإنه يقدر أن يعمل أعمالًا وهو في بيته أفضل من الجهاد الذي هو أفضل من الحج.

- فقد أخرج البخاري من حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أن النبي ﷺ قال:

" ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام (يعني الأيام العشر)، فقالوا: يا رسول الله ولا الجهاد في سبيل الله؟، قال: ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجلًا خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع من ذلك بشيء ".

- وقد مرَّ بنا في الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ أنه قال:

" سُئل رسولُ الله ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور ".

فقدَّم الجهاد على الحج في الفضل، وفي هذه الأيام العمل فيها أفضل من الجهاد الذي هو أفضل من الحج.

- **فيا أيها الأحبة**... من بَعُدَ منكم عن حرم الله فلا يُبْعد نفسه بالذنوب عن رحمة الله، فإن رحمة الله قريب ممن تاب لله واستغفر.

- ومَن عجز عن حج البيت، أو البيت منه بعيد، فليقصد رب البيت فإنه من دعاه ورجاه أقرب إليه من حبل الوريد.

- ومَن فاته في هذا العام القيام بعرفة، فليقم لله بحقه الذي عرفه.

- ومَن عجز عن المبيت بمزدلفة، فليُبَيِّت عزمه على طاعة الله وقد قربه وأزلفه.

ومَن لم يقدر على نحر هديه بمنى، فليذبح هواه هنا وقد بلغ المُنى.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

رأى بعض الصالحين الحُجَّاج في وقت خروجهم، فوقف يبكي ويقول: واضعفاه...! ثم تنفَّس وقال: هذه حسرة مَن انقطع عن الوصول إلى البيت، فكيف تكون حسرة مَن انقطع عن الوصول إلى رب البيت؟

وبعد...

فهذا آخر ما تيسَّر جمعه في هذه الرسالة.

وأسأل الله– تعالى– أن يكتب لها القبول، وأن يتقبَّلها منّي بقبول حسن، كما أسأله سبحانه وتعالى أن ينفع بها مؤلفها وقارئها، ومَن أعان على إخراجها ونشرها.....إنه ولي ذلك والقادر عليه.

هذا وما كان فيها من صواب فمن الله وحده، وما كان من سهو أو خطأ أو نسيان فمنِّي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء، وهذا شأن أي عمل بشري فإنه يعتريه الخطأ والصواب، فإن كان صوابًا فادعُ لي بالقبول والتوفيق، وإن كان ثم خطأ فاستغفر لي:

وإن وجدت العيب فسد الخللا جلّ من لا عيب فيه وعلا

فاللهم اجعل عملي كله صالحًا ولوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه نصيبًا

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هذا والله – تعالى– أعلى وأعلم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك